# مجمّة العظماء

عن

# في

# تعظيم العُلماء

تأليف الإمام الحكيم ، والغوث العظيم ، القمر الفاطمي الأزهر ، والبدر الكامل الأنور
حجة الله على أوليائه في عصره ، ونتيجة المفاخر في دهره
سيدي ومولاي السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي قدس الله سره ورضي الله عنه

بتوجّهات مدير الدائرتين ، وهمّة القائم في الرحبين
ونائب الأقطاب الوُرّاث ، أبناء الإمام أبي العلمين
القائم بنشر العلم والحال المحمدي ، ورافع لواء الطريق الرفاعي الأحمدي
**سيدي صاحب الفضيلة الشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة حفظه الله وأيّد به الاسلام والمسلمين**


عني بكتابتها وتحقيقها وترتيب جمعها ، واكرم بتصحيحها والإشراف على سير طبعها
طفيلي مائدة الآل ، والمستشرف بأعتابهم عند نُوّابهم لخدمة النعال
أفقر الورى ، وأحقر من ترى
عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط
السقباني الدمشقي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه والمسلمين

الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هجرية

على نفقة جامعها وأخيه في الله المحسن الفاضل الحاج محيي الدين غنام أحسن الله للجميع الختام

**توزع مجاناً**

﴿ وقلت ابتهاجاً بمحبة روح المحبين عليه اشرف تسليمات رب العالمين ﴾

نظمت بمن اهواه شعري زبرجدا ... ودُرّاً وياقوتاً وماساً وعسجدا
وأخلصته مني فؤاداً مُتيّماً ... به لم يزل ودّي الصميم مؤبّدا
ورُحت على حلو الليالي ومُرّها ... به هائماً بين الأخِلاّء والعِدا
أُشبِّب فيه ذاهل الفكر حائراً ... أرى العمر إلاّ في محبته سُدى
لقد ضلّ فيّ الحاسدون لغيّهم ... وإني على رغم الأعادي ابو الهدى

لسيدي المؤلف رضي الله عنه اختار وضعها هنا طفيلي مائدته
الهائم بمعناه المنجلي بغيبته في حضرته
وبمثاله المُشرق بطلعته في روضته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الأشياء ، باسط الأرض رافع السماء ، القائل ( إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ) والصلاة والسلام على روح الوجودات ، وسيد السادات نبيِّنا الأعظم المكرم حبيب الله ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد فيقول الفقير إليه تعالى محمد أبو الهدى ابن السيد حسن وادي المكنَّى بأبي البركات الصيادي الرفاعي الخالدي كان الله له ولوالديه وللمسلمين إنه البَرّ المعين .

هذه رسالة صغيرة ، حاوية على فوائد كبيرة ، ومقاصد جليلة ، ذات فصول جميلة ، خدمت بها علماء المسلمين ، وفضلاء هذا الدين ، وجعلتها هدية وتحفة سنية لخزانة كتب سيدنا أمير المؤمنين ، حامي حوزة الشرع المبين ، ناصر سنة النبي الطاهر الأمين ، خليفة الجناب العالي النبوي على الموحِّدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، وسيع الرحاب ، شامخ المباني ، المؤيَّد بالنصر السماوي الرباني ، شرف البيت

الجليل العثماني مولانا حضرة السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني دام محروساً بالسر الفرقاني ، والمدد الصمداني آمين وسميتها ( محجة العظماء في تعظيم العلماء ) جاءت كالدر النظيم ، وقد سلكت في منهاجها الصراط المستقيم، توضح لزوم تقديم العلماء على من سواهم من طبقات الأُمَّة عقلاً ونقلا ، وتلزم أفراد الأُمَّة بالقول بهذه النصوص فرعاً وأصلا ، لا يحيد عنها عارف بأحكام الدين ، متمسك بالكتاب المبين، وقد رتبتها على مقدمة وبابين وخاتمة ، فالمقدمة في بيان شؤون العلماء ومنهاجهم ورفيع مقامهم ، وبيان صنوفهم على اختلاف صفوفهم ، والباب الأوّل في فضائلهم ووجوب تقديمهم نصاً ونقلا ، والباب الثاني فيما يؤيد النقل بشأن تقديمهم عُرفاً وعقلا ، والخاتمة في بيان إجماع الأُمم الشرقية والغربية ، بل وكل أصناف البرية ، على إعظام العلماء وتقديمهم على غيرهم من الأُمراء والغزاة والكُبراء .

## ﴿ المقدّمة ﴾

أقول وبالله التوفيق : العلماء في الإسلام سُرج الدُّجى ، ومصابيح الهدى ، وحَمَلة شريعة سيد الخلق الحبيب المصطفى عليه صلوات الملك الأعلى ، وقادة الخلق ، وتراجمة أوامر الحق ، ورثة الأنبياء ، وعيون الأتقياء ، بهم تُعرف أحكام الدين ، وتُساس طبقات المسلمين

ويبدو نور الحكمة في العالمين ، وهم في القديم والحديث سيوف الخلافة المحمدية ، ودعائم مجد الإمامة الكبرى الإسلامية ، بفتاواهم تنحلّ المشكلات ، وتُزال المعضلات ، وتنقاد الأُمة مُذعنة للطاعة ، ولا يشذّ المسلم عن الجماعة ، انطوت في مناشير علومهم أحكام السياسة ، وأنواع المعارف والكياسة ، فمنهم المفسِّر النحرير ، ومنهم المحدِّث الشهير ، ومنهم الفقيه الخطير ، ومنهم النحوي والمنطقي والجدلي والكلامي ومنهم الأديب الكاتب ، ومنهم اللغوي والحاسب ، والمتفنِّن في المطالب ، ومنهم المتوسِّع في صنوف العلوم والفنون ، ومنهم الذي إذا خطب ذهل لعجيب بيانه العاقلون ، وكلهم على طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يخشون الله ، ويعظّمون جناب رسوله ، ويشيِّدون دعامة مجد خليفة الجناب المحمدي في المسلمين ، على كرِّ الأدوار والأعصار حيناً بعد حين ، ويخدمون الدين ، ويقومون بنفع النوع العام من الآدميين ، فهم وُرّاث النبي في الأُمّه ، ووجودهم على التحقيق للنوع الإنساني نعمة ورحمة :

الناس في الظلمات عن نهج الهدى ... في حيرة مع مغلق الآراء
يمشون لا يدرون أين زموعهم ... لولا ضياء العلم والعلماء

وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم القائمون في كل زمان بتبليغ أوامر الله للخلق ، والمهتمون بتجديد أمر الدين كما شرع الحق . ولا ينكر أن بعض من لبس زيّ العلماء يتفلسف ويضل ، وبعضهم يخطفه حُب الدنيا فيعوجّ عن الحق ويزل ، غير أن أولئك زيّهم زيّ العلماء ، وحقيقتهم حقيقة الجُهلاء ، وأما العلماء فبشهادة النص القرآني هم الذين يخشون الله ، وذلك لعلمهم بالله وآيات الله قال تعالى ( إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ) وإنما أداة حصر وتحقيق ، فهم على التحقيق الذين يخشون ويعظّمون أوامره وأوامر رسله عليهم الصلاة والسلام ، ويؤيّدون ما جاء به النبي العظيم الكريم الحكيم ، الذي استنارت به الألباب ، وجاء بالحكمة وفصل الخطاب ، نعم ان العلماء الأعلام كنوز الحِكم والأحكام لما كانت بضاعتهم أجلّ البضاعات ، ومقامهم بعد الشارع الأعظم وخلفائه ذوي السلطان الشرعي أعلا المقامات ، حسدهم الجهلاء ، وتجرّأ على حطّ مقاديرهم السفهاء ، ففي التوراة : ما وُجِد حكيم في قوم قط إلاّ بغو عليه . وقال ﷺ « أزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه » ولا يعرف قدر الفضل إلاّ أهله ، فالجاهلون بالطبع هم أعداء العلماء فالمرء عدو ما جهله ، وفي كلام سيدنا أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه وكرم الله وجهه :

وفي الخبر الشريف « إنما يعرف الفضل لأُولي الفضل ذووه » ومن تتبع تواريخ الأُمَّة رأى من إهانة الجهلاء للعلماء العجائب ، غير أن التاريخ ينبئنا أن الأُمَّة ما أخّرت علمائها في زمن إلاّ ذلّت ، ولا أعزّت علمائها في وقت إلاّ عظُمت وجلّت ، ويؤيِّد ذلك قول الله تعالى ( كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ) فهذه دلالة صريحة على انحطاط الأُمَّة التي تؤخِّر العلماء ، وقال تعالى بشأن نبيِّه سيدنا موسى الكليم عليه السلام ( ولمّا بلغ أشُدَّه واستوى آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ) وهذه دلالة صريحة أيضاً على إعزاز الأُمم التي تعظِّم العلم والعلماء ، وقد بغى الكثير من الفاسقين والضالين على الكثير من العلماء العاملين ، وعباد الله الصالحين حسداً لمظاهرهم ، وبغياً على مفاخرهم ، فافتروا عليهم ، ونسبوا أنواع النقائص اليهم ، وأهانوهم بنشر الأُكذوبات ، وبث المعيبات ، فأهان الله من أهانهم ، وأعزَّهم ببركة الشريعة وصانهم ، وأنار في الملأين برهانهم ، والأقيسة من الشواهد كثيرة لا تدخل تحت الحساب ( إن في ذلك لآيات لأُولي الألباب ) .

ولا بدع فأشرف العلوم ثلاثة : العلم بكتاب الله وأسراره وحِكَمه.

والعلم بسُنَّة رسول الله ﷺ وحقائقها ودقائقها وطرائقها ومعانيها ، ورقائق مبانيها .

والعلم بمذاهب أهل الحق ، وشرائف رموزها ، ومخبآت كنوزها.

ويجمع هذا التفصيل الجزل ما رواه الفقيه الأعظم العدل ابن العدل سيدنا عبد الله بن عمر الفاروق رضي الله عنهما مرفوعاً « العلم ثلاثة وماسوى ذلك فهو فضل آية محكمة أوسُنَّة قائمة أوفريضة عادلة » فإذا تبحّر العالم في هذه العلوم الثلاثة فليس بشيء مهم ما بعدها عند من يعلم ما هي هذه العلوم الثلاثة ويُدعى بالعالم العظيم ، والعلّامة الحكيم ، وإذا تبحّر في علمين منها أوفي علم فهو أيضاً عالم وفاضل إلّا أن المستجمع لها هو الرجل الكامل ، وإن نُظُم الإنسانية يقضي بإجلال العلماء وتقديمهم على من سِواهم ، وتفضيلهم على من عداهم ، لأنهم أعيان نوع الإنسان ، فتنقيص أعيان النوع لايكون إلاّ من عدم المعرفة بحقوق النوع مطلقاً ، وإن الإنسانية شجرة واحدة مختلفة الأغصان ترجع إلى آدم وحوّاء عليهما السلام ، ولابدّ من الاعتراف بالآدمية أعني بالنسبة المتناهية إلى آدم بالضرورة إذ التسلسل محال عقلا ، ومتى حصل الاعتراف بالانضمام العام إلى الشجرة الآدمية عرفنا أن النوع الانساني كله عائلة واحدة وإن تباعدت بها عقود الوفاق ، وحلق الانشقاق غير أن ذلك البُعد

لا يمنع معرفة المرء حقّ نوعه ، ومتى عرف حق نوعه ميّز بين النبيين والمرسلين ، والخلفاء المكرمين ، والملوك والسلاطين ، والأولياء والصديقين ، والعلماء العاملين ، وأرباب البغي والعناد ، وأصحاب الجهل والفساد ، وعصبة الشقاق والنفاق ، وأهل سوء الأخلاق ، واندمج بطبعه بسلك أهل الحق فكان إمّا عالماً أو متعلماً أو مستمعاً يأخذ بكلام فضلاء النوع العلماء الأعيان ويعمل به ، ويتبعهم في مناهجهم ، فمن قلّد عالماً لقيَ الله سالماً ، وليعلم أن الشجرة الآدمية كلها كالوجود الواحد ، فيها الرأس والعين والأنف والفم واللسان واليد والرّجل والقلب والقدم وكعب القدم والأظافر والشعر ، فالعلماء في الوجود الآدمي بعد الأنبياء ونُوّابهم من خلفائهم ذوي السلطان الشرعي في الأُمّة كالعين والقلب واللسان والرأس ، وما عداهم فبنسبة شأنه يُعد في الوجود ، فإن كان غازياً أعني عسكرياً صالحاً موافقاً في منهاجه لأحكام الله ، مطيعاً لأوامر رسول الله ، صادقاً في خدمة خليفة المسلمين ، ناصباً نفسه لخدمة كل فرد من أفراد المؤمنين ، قائماً بوظيفة الحراسة للأُمة بدين قويم ، وقلب سليم ، فهو كاليد في الوجود وإلاّ فإذا كان خائناً في وظيفته ، محتالاً في حراسته ، غير مُقيّد بأحكام دينه ، خدّاعاً في خدمة إمامه ، مُضرّاً لأفراد النوع الآدمي ، متهجّماً

عليهم ، مهيناً لأحد منهم ، عبد غايته ، رفيق منفعته ، متّخذاً عسكريّته صنعة يخيف بها الضعفاء ، ويخدم بها أهل الأغراض من الأقوياء ، فهو كالظفر الزائد الغازّ بلحم الآدمي الذي يلزم طرحه لراحة الوجود وسلامته ، ومثله ليس بعسكري ، ولا حارس للنوع الآدمي على الوجه الشرعي بل هو كقُطّاع الطريق البُغاة ، استتر بالكسوة العسكرية لا غير ، وإن كان المرء حاكماً أو موظفاً بخدمة ترجع إلى سياسة الأُمة كبيرة كانت أو صغيرة على اختلاف الطبقات ، من رجال الشرطة إلى عظماء الوزراء والوكلاء ، فيُنظر إلى استقامته في خدمته فإن كان عفيفاً عن الأموال والأعراض ، مُنزّهاً عن سوء المقاصد والأغراض ، واقفاً على قدم الصدق بالصداقة الشرعية المرعية لحضرة أمير المؤمنين ، مراعياً حقوق الآدميين ، غيوراً على مصالح المسلمين ، غير مندمج في عصابة الكذابين والمخادعين ، كمن يجعل شؤون بيت مال المسلمين آلة لمنافعه الذاتية ، فيُغفل مقام الإمامة الكبرى ، ويخدع رحاب الخلافة العظمى . ويسرق من أثمان أسلحة الجند أو من قيمة سُفن الحرب وغير ذلك مما يعود للهيئة المجتمعة تحت لواء السلطنة المعظمة ، ويدّخر ألوفاً من الدنانير حقيقتها بنادق وسُفن اختطفها من أيدي الجنود البرية والبحرية التي تريد أن تدافع بها الصائلين ، لتحفظ ثغور

بلاد المسلمين ، وأعراض الآدميين ، وغير ذلك من دراهم المعادن ، والأرزاق والقضايا التي تعود للنوع على الإطلاق ، فالصادق من العمّال بمثابة الظّهر والقوة للبدن ، والصنف الثاني كأصبع طرأ عليه مرض يُخشى سريانه إلى الجسد فيضر بكله ، ويؤذي بفرعه وأصله ، ولذا فيجب أن يُقطع ويُطرح لكيلا يضر بالوجود ، ويصير سبباً لإتلافه ، بما يسري اليه من أوصافه ، ومثل ذلك المأمور كبُر أو صغُر كالسُّراق الذين ينحدرون ليلاً على بيوت الناس فيسرقون أموالهم ، ولعلهم لاستكمال أغراضهم يتجرّؤون على دمائهم وعلى ذلك فقس ، وقد أمرنا الشرع الكريم ، وجاءنا بذلك النبي العظيم ، وصرّحت الآيات ، وتظافرت الإنباآت بلزوم القرين الصالح الذي يصون قرينه في دينه ودنياه ، وينفعه في أولاه وأخراه ، وإلاّ فالقرين الذي يميل مع الظلال ، ويصوِّر المحال ، ويخدم للدنيا المحضة فهو عبد الزيادة أين رأى المال مال ، وهذا الذي يقول له قرينه يوم العرض على رب العالمين ( يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين ) ويقول كما جاء في الكتاب العزيز حين يندم على مقارنته ندماً طويلاً ( يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ) هذا الذي أنبأنا به كلام الله ، وجرت به في الخلق عادة الله فإن عبيد المال الذين يكلبون لجمعه من حرام وحلال آلة خراب ،

وأدوات محن عظيمة تطرأ على الأُمّة من كل باب ، وقد يستر حالهم الزمان في بعض الأحيان ، غير أن نتائج أحوالهم السيّئة لا تخفى في وقت من الأوقات على أُولي البصيرة والإذعان ، وإذا الزمان أهمل شأن العلماء أُولي الاقتدار الذين يمكن أن تعمر بمساعيهم الديار فلا بأس أن يظهر المقتدر بإذن الله منهم فيقول لِوُلاة الأُمور ولُّوني الولاية الفلانية أو استخدموني بالخدمة الملكية أو المالية ليُظهر ماوهبه الله إياه من القدرة بخدمة دينه وإمامه وبني نوعه ، وقد قال سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام كما حكى الله سبحانه عنه في القرآن لعزيز مصر ( إجعلني على خزائن الأرض ) فلما جعله على الخزائن أزال الضنك والضيق ، وأتى بالخير الوثيق ، وبث الرخاء والسعة في البلاد، وأمّن مصالح العباد ، وهذه من واجبات العلماء في أوقات الضرورات، والأزمنة الملزمات ، وولاة الأمور إن شاؤا فعلوا وإلاّ فلا لأن أزمّة الأُمور والتوفيق في البارز والمستور إنما هي بيد الله تعالى، ومن أهم وظائف العلماء التي أوجبها عليهم الله ورسوله قول الحق ، وأن لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وإن الدليل على صدق العلماء عدم ميلهم للمال الحرام والتنزّه عنه ، والمخالفة للُصُوص العمّال [1] الذين جعلوا

(١) العمّال يعني القائمين بالأعمال الحكومية أرباب الوظائف .

مال الهيئة المجتمعة تحت لواء الخلافة العظمى مغنما ، المحرّفين للحقوق ، الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، ينصبون أنفسهم لوقاية الخوّان ، ولحفظ مقاديرهم القبيحة ، ويحطّون على علماء الدين ، وأهل الشمم والشيم من عظماء المسلمين ، يريدون أن لا يكون في الأمة المحمدية لسان ناطق يرفع لوليّ الأمر كلمة الحق ، ويُبيّن المبطل من المحق ، فهم كالسم في بدن الأمّة ، ومخالفة مثل أولئك فيها منفعة خاصة لحضرة أمير المؤمنين ، ومنفعة عامة لجميع الآدميين ، ومن شيم العلماء الصبر في الله وإن آذاهم أولوا الضلالة وعصائب الجهالة بالأكاذيب والمفتريات ، ونصبوا لهم أشراك الدسائس الخفيات ، فإن الله تعالى قال ( إن الله لا يصلح عمل المفسدين ) ( إن الله لا يهدي كيد الخائنين ) وان العالم الكامل غاية نظره في الدنيا والآخرة خمس مراتب ، الأولى رضاء الله ، والثانية خدمة رسول الله ، والثالثة الانتصار لخليفة رسول الله في ملك الله لإعلاء كلمة الله ، والرابعة إيصال النفع العام لخلق الله ، والخامسة حفظ مزيته ووقاره صيانة لمجد العلم الذي هو موهبة الله ؛ ومن كانت هذه المراتب الخمسة بغيته عارضه المناقضون له فيها أعني الذين يريدون رضاء الناس ، وخدمة الغرض ، وينتصرون للمال ويضرون النوع الآدمي ، ولا وقار لهم فاولئك هم بالطبع أعداء

العالم لمخالفته لهم في الشؤون الخمس قال الله تعالى ( لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ) أي لا بد وأن يختبركم الله وهو بكم أخبر فيكلفكم انفاق أموالكم في سبيله ، أو يصيبكم في أموالكم نقصان ، وكذلك يكون ذلك الاختبار في أنفسكم بالجهاد فيه سبحانـــه ، والتعرض بسبب ذلك للقتل والأسر والجراح وما يطرأ على الاجساد من المتاعب والأمراض ، ولا بد أن يسمع كلكم أذى كثيراً من أولي الكتاب الذين أوتوه من قبلكم ومن غير الكتابيين كعبدة الشجر والحجر وغيرهم من المشركين مثل التجري ـ والعياذ بالله ـ على هجاء النبي الأعظم ﷺ والطعن بدينه القويم ، ومنهاجه المستقيم ، يزعمون بذلك ردّكم عن اتّباعه ، وقطعكم عن الانضمام إلى أنصاره وأشياعه ، وسيغرون صنوف أهل الكفر عليكم أخبرهم بذلك كله كتاب الله العزيز قبل وقوعه ليوطّدوا لذلك نفوساً راضية ، وقلوباً مطمئنة ، وليقابلوا كل ذلك بعزم وصبر ، وليتقوا الله من مخالفة أوامره ، وعرّفهم أن فعل ذلك من عزم الأمور وعزم الأمور المبالغة بالثبات على الرأي ، وكمال الوقوف عند إمضائه ، فللعلماء أنصار الخلافة المحمدية إرث للصحابة معنوي لا بد من وقوعه ،

ولأهل الخِدع والنفاق اللفظي وأرباب المكر والضلال إرث من الكفرة والفجرة كذلك لا بد لهم منه ، ولهذا لزم على العلماء الصبر ليقتدر كل منهم على خدمة الخلافة المحمدية ، والشريعة الزاهرة الأحمدية ، وليتمكن حسب الشرع من نفع العصابة الآدمية ، وقد اعترف ساداتنا الخلفاء للعلماء وعرفوا مقاديرهم ، ورجعوا إلى أقوالهم ، ونوّهوا على عظيم مكانتهم ، ويكفيك أن الفاروق الأعظم معز الدين سيدنا عمر الخليفة الثاني رضي الله تعالى عنه أمر برجم جارية زنت واعترفت فمر بها سيدنا عليّ الكرار رضي الله عنه وكرّم الله وجهه وهي تقاد للرجم فإذا هيَ حاملة فأعادها وقال للخليفة الجليل سيدنا عمر : هذه زنت فما ذنب جنينها . فعرف الفاروق الحكم فبكى وقال : لولا عليّ لهلك عمر ؛ ولما وفد عالم النصرانية النجراني على الخليفة العظيم الشأن عمر رضي الله عنه وسأله عن حكم العِدّة للمرأة التي يُمسخ زوجها فاجتمع الصحابة رضي الله عنهم سوى الإمام عليّ كرّم الله وجهه فإنه كان شاكياً مرضاً فرجعوا إلى الكتاب والسُّنة فما وجدوا لسؤال الرجل جواباً ، وضاق الأمر فأرسل سيدنا عمر لسيدنا عليّ رجلاً يقول له إلحق شريعة ابن عمك ﷺ فانتهض وجاء إلى المسجد فقصّ عليه النجراني السؤال فقال كرّم الله وجهه في الحال : إن مُسخ زوجها ذا روح فعدّتها عدة

المطلّقة ، وإن مُسخ جماداً فعدّتها عدة المميتة فكبّر المسلمون، وقال سيدنا الإمام عمر رضي الله عنه : اللهم إني أعوذ بك من فادحة ليس لها أبو الحسن . وفي هذه المقدمة بشأن العلماء بلاغ .

## ﴿ الباب الاول ﴾

الباب الأول في فضائل العلماء ووجوب تقديمهم نصاً ونقلاً قال الله تعالى ( قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) وذلك لمزيد فضل العلم وأهله ، فقد نفى القرآن الحكيم استواء الفريقين ، وأجلّ النص الذين يعلمون وقد اختارهم الله تعالى للخطاب إجلالاً لمنزلتهم ، وإعلاء لمقامهم فقال سبحانه ( كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون ) وعلّل سبحانه اصطفاء طالوت على قومه وعلى أُمرائهم من آل جالوت أولاد يهوذا فقال تبارك وتقدس ( إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ) ولم يشترط بذلك كثرة المال والحطام ، والمظاهر المقبولة عند العوام ، وإنما اشترط للاصطفاء العلم ثم الجسم وهو عبارة عن الاستعداد القائم في نفس الصورة لفهم غوامض العلم ، فما كل عالم بعالم ، وإن العلماء وإن كثُر صنفهم فالجهابذة الراسخون منهم قليلون يشهد بذلك كتاب الله المنزل على سيدنا رسول الله صلى

الله تعالى عليه وسلم قال تعالى ( مـايعلمهم إلاّ قليل ) وقال سبحانه ( وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم ) هذا على قول من قال أن الواو هي واو عطف ، والراسخون في العـــلم هم أفراد العلماء ، وأعيانهم المتبحرون المحيطون بأسرار العلم الشريف ، وفي كلام بعض الجهابذة : زينة العلم بعد العمل الصالح لين العريكة . وقد قال ﷺ « من لانت عريكته وجبت محبته »والعلماء محبتهم على المسلمين واجبة حتماً ، فحبهم خير وبركة ، وبغضهم نفاق بل إذا أبغض العالم لعلمه يكفر والعياذ بالله فهم المبلِّغون دين الله الى الأُمة ولولاهم لمات الدين وهم زينة الأرض وجمالها ، وهم ابدال النبيين ووراّثهم في العالمين ، وقد تظافرت فتاوى أئمه الدين بالقول بتكفير المحقِّر للعلماء نص على ذلك في الظهيرية ، وفي التمهيد وتعليقاته ، وفي التاتارخانية وغير ذلك ، وإن حبهم من الايمان بل ومن أوضح الدلالات على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ ، وخرج زيد بن ثابت الى محل فقُدمت اليه بغلته ليركب فأخـــذ سيدنا عبدالله بن عباس بركاب بغلته فانزعج لذلك إعظاماً لشأن ابن عباس رضي الله عنه فقال له : هكذا أُمرنا أن نصنع بعلمائنا . فقال زيد :ناولني يدك فناوله يده فقبلها وقال : هكذا أُمرنا أن نصنع بأهل بيت نبينا ﷺ ولم يساوِ العلماء في فضلهم أحد

من الأُمة ، وقد ورد أن الملائكة تتواضع لهم ذكر في روضة العلماء عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «يقول الله تعالى لاتحقروا عبداً آتيته علما فإني لم أحقره حين علَّمته» وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول « من سلك طريقاً يطلب به فقهاً وعلما سهَّل الله له طريقاً الى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » وقال لقمان الحكيم لابنه : جالس العلماء لأنك إن تكن عالما يزدد علمك، وإن تكن جاهلا تتعلم منهم، ولا تجالس الجهال فإنك إن تكن عالماً يُنسى علمك وإن تكن جاهلا يزدد جهلك . وعن مكحول قال النبي ﷺ « النظر الى خمس عبادة إلى وجه الأبوين وإلى المصحف وإلى الكعبة والى بئر زمزم وإلى وجه العالم »

قلت : ومعناه نظر الحُب والتعظيم. وعن ابن عباس رضي الله عنه خُيِّر سليمان النبي عليه السلام بين العلم والمُلك فاختار العلم فأُعطي العلم والمُلك معه . وفي الخبر « من صلىَّ خلف عالم فكأنما صلىَّ خلف نبي » وفي تعيين مراتب العلماء ومقاماتهم يكفي ماورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ « ذو السلطان وذو العلم أحق بشرف المجلس » وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه وأبي هريرة أيضاً « خيار

أمتي علماؤها » وعن جابر رضي الله عنه « خير الناس انفعهم للناس » فقد عرّفنا المصطفى ﷺ بهذا أيضاً أن العلماء خير الناس إذ هم النافعون للناس النفع الأعم الألزم ، وذلك تعليم الدين والأخلاق والسَّوْق الى كل خلّة كريمة وهي علّة البعثة النبوية فقد قال ﷺ « بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وفي استحصال الكمالات الدينية ، والتهذيبات العلمية حصول النفع الديني والدنيوي وقد قال ﷺ « خير الناس أقرأهم وأفقههم في دين الله وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم »

قلت : ولا يتم كل ذلك إلاّ بالعلم فإن التقوى لا تصلح بالجهل ، فكل من يعمل بغير علم أعماله مردودة عليه يؤيّد ذلك قول النبي ﷺ « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » وبرواية معاذ رضي الله عنه قال ﷺ « العالم أمين الله في الارض » وبرواية أنس رضي الله عنه « العلماء أُمناء الله على خلقه » وعن أنس ايضاً برواية ابن النجار قال عليه الصلاة والسلام « العلماء ورثة الانبياء يحبهم اهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا الى يوم القيامة » وعن ابن عباس الحبر الجليل رضي الله عنه وعن أبيه قال النبي ﷺ « العلم افضل من العبادة وملاك الدين الورع » وعن السيدة أمّ هاني رضي

الله عنها أن النبي عليه الصلاة والسلام قال «العلم ميراثي وميراث الأنبياء من قبلي» وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ «فضل العالم على غيره كفضل النبي على أمته» وعن ابن عباس في تعظيم العلم يروي أن النبي ﷺ قال «طلب العلم افضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل»

قلت: ومن أين يعرف المصلي والصائم والحاجّ والمجاهد ما يجب عليه في عمله إلاّ بالعلم وفي معنى الحديث الشريف بيان أن الصلاة والصيام غير المفروضة والحج غير حجة الإسلام كل ذلك أفضل منه طلب العلم، وعن أنس رضي الله عنه «طالب العلم أفضل عند الله من المجاهد في سبيل الله».

قلت: لأن كل منهما يؤدّي فرض كفاية، وبالنسبة إلى العملين المذكورين فطلب العلم أفضل من الجهاد، وعلى هذا فطالب العلم أفضل من المجاهد، وإن طالب العلم إذا انقطع للعلم ونشره في الأمّة فإن الله يُسهِّل له رزقه من حيث لايحتسب، وذلك تحت كفالة الله تعالى روى زياد بن الحارث عن النبي ﷺ أنه قال «من طلب العلم تكفّل الله له برزقه» ولجلالة قدر العلم وأهله عرّفنا المصطفى ﷺ «أن مِداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» ومن هذه الآيات الكريمة الفرقانية،

والأحاديث الجليلة النبوية يعلم كل من يؤمن بالله ورسوله ﷺ أن العلماء أفضل صنوف الأُمّة ، وأن فضيلة الصنف تقضي بإعطائه حق الحرمة التي تُثبت له في أعـــين جماهير الأُمة الفضيلة التي وردت بها النصوص ، وإلاّ فالفضيلة إذا بقيت لفظية ولم ينتظم معها عمـل يثبتها بقيت ضرباً من اللغو والعبث .

وهنا كلمة حق وقد روى الإمام ابن الجوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « ما آتى الله عالماً علماً إلاّ أخـذ عليه الميثاق أن لا يكتمه » وبالنظر إلى هـذا الحديث الشريف أقول : روى ابن عباس ترجمان القرآن رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال « ما من أمير يُؤمّر على عشرة إلا سُئل عنهم يوم القيامة » وعلى هـذا فالسؤال يوم القيامة عن حقوق العلماء بل وعن حقوق الأُمّة كبيرها وصغيرها مسلمها وغيره إنما هو عائد على وليّ أمر الأُمّة في كل عهد ما كرّت الأيام ؛ وانظر كيف قال الفاروق الأعظم سيدنا عمر رضي عنه : والله لو سقط جـدي من جسر في العراق لخفت أن يسألني الله عنه . وقال في موعظة له : كما ولينا أُموركم ولينا مقاديركم . والنبي ﷺ قال « أنزلوا الناس منازلهم » وفي كتاب الله تعالى ( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) ومن أسرار الأحاديث النبوية ، وفحاوى الآيات القرآنية

تعيّن لزوم تقديم العلماء على من سواهم لزوماً بتاً لامحيص عنه شرعاً ، وهم بعد ذوي السلطان الشرعي أحق بشرف المجلس كذا أنبأنا رسول الله ﷺ والله تعالى قال ( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) وقال تعالى ( فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم )والفتنة أما في أمر الدنيا وتلك كهجوم الأعداء، وتخالف الآراء ، وكثرة الشقاق ، وقلّة الوفاق ، وتفرقة الكلمة وقد قال رسول الله ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قال قائل ومن قِلّة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم كثيرون ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ولينزعنّ الله من عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن قيل وما الوهن؟ قال حُب الدنيا وكراهية الموت » والغُثاء الأعواد الصغيرة من النبات التي تنحدر مع السيل متفرقة كل واحد لوحده .

والفتنة والعذاب في الآخرة من الأُمور المعلومة حمانا الله ، ومن أشراط الساعة تأخّر العلماء وتقدّم السفهاء ، وأن يكون زعماء القوم أراذلهم كالذين يشربون الخمور ، ويكذبون ويزعمون بالكذب تمشية الأُمور ، ويأكلون الرشوة بلا حياء ، وقد لُعن كل منهم على لسان رسول الله ﷺ . ومن أشراط الساعة أن يُؤتمن الخائن ، ويخوّن الأمين ،

ويُكذّب الصادق ويصدّق الكاذب ، ولكل تلك الفعال نتائج لا يمكن كتمها تظهر في اختلاف قلوب العباد ، وبعدم السكون الصحيح في النواحي والبلاد ، وفي الأنفس والآفاق ، وفي جميع الشؤون على الإطلاق .

ومن أشراط الساعة أن يُولّى الأشرار ويُطرح الأخيار ، وقد يولّى وظيفة جُند رجل يزعم أنه عسكري وهو إن ندبناه إلى جهاد ، وصون بلاد ، ورعاية حقوق عباد كان أجهل من دابّة ، وأعجز عن القيام بأمر الحق من ظلاله ، وتراه يستلّ سيفه على أفراد الأُمة ليحقر كريمهم ، ويهين عزيزهم ، ويُخوّن أمينهم ، ويسلب ضعيفهم ، وهو الملعون بكتاب الله ، وعلى لسان رسول الله ، الذي يخشاه الناس لشرّه ومثله رجل مشتهر بسرقة الأموال من الناس ومن بيت المال فتضاف اليه خدمة مالية فيجهد ليملأ جيبه ، ولا يخشى في ذلك من الله ذنبه ، ومن الناس عيبه ، ومثله مثل هرّ استُعمل حارساً على قطعة لحم .

ومن أشراط الساعة كثرة الحطّ على العلماء والصالحين ، والخوض بعباد الله ، والسكوت عن الظلمة الباغين الذين سلبوا نِعم الأُمّة فأعمروا شواهق الأماكن للإيجار ، وكنزوا ألوف الدرهم والدينار ، وأكثروا على عباد الله الصالحين ، وعلى العلماء المحققين ، وعلى فقراء

المسلمين وعلى ضعاف الآدميين العظمة والاستكبار .

ومن أشراط الساعة كاتب كاذب يخون المسلمين بأقواله وأفعاله، ويضر الإمامة الكبرى في جميع أحواله ، ومثله قرين غير أمين ، ومقرّب تزعم فيه الصداقة وهو من أشدّ الخائنين ، وكذلك قال صاحب الشفاعة « إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » وإن من جليل حكمة سيد الأنام التي أفرغها بلسان النصح العام قوله عليه الصلاة والسلام « إيّاك وقرين السوء فإنك به تُعرف » ولا بدع فإن قرين السوء يمنح الخائنين ويقرّبهم ، ويحرم الصادقين ويبعدهم ، ولا يعرف غير نفع نفسه ، ولا يميل إلاّ إلى أشباهه وأبناء جنسه ، وقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « من أشراط الساعة الفحش والتفحّش وقطيعة الرحم وتخوين الأمين وائتمان الخائن » فمن انحطّت عن العلم الشرعي همته ، ولحق الجهل بحكم الشرع وحكمته ، أيضاً كذب في الأقوال ، وخيانة في الأعمال ؛ وأيّد لنا ذلك ثروة يلعب بها تخوّض فيها بغير حق نهبها من بيت المال ، وامتصّها من دماء الأُمّة فلا بدع نحكم بأنه خائن لدينه ولخليفته ولأفراد الأُمة ، ولا يجوز شرعاً اتّباعه ولا التعويل عليه ، ولا النظر بالأمانة اليه ، وإنما الذين يُتّبعون في آرائهم فهُمُ العلماء روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ

أنه قال « إتبعوا العلماء فإنهم سُرج في الدنيا ومصابيح الآخرة » وقد ألمّ الغلط بكثير فزعموا أن العلماء بأجمعهم قد زُووا عن صف ابناء الدنيا ، وكأنهم لا يعرفون السياسة ، ولاحظّ لهم من الكياسة والفراسة ، وكأن العقل قد انصبّ في دماغ من تعلّم كُلمات من لغة اجنبية ، وعرف العادات الافرنجية ، وإن كانت الكلمات التي تعلّمها مشحونة أواني حروفها بالغلط السقيم ، والعادات التي أكبَّ عليها عبارة عن تأنّقات عملية يألفها كسالى النساء الشابّات بالنعيم ، وماعرفوا أن في العلماء من مزّق بُردة سياسة الزمان ، ووقف على كنهها المندمج في كل أُمّة والدائر بكل لسان ، وأصبح مقتدراً على إدارة رحى السياسة بهمّة كادت تشابه الفلك في عزيمته ، وفكرة توقف دولاب المشكلات عن دورته ، ولكنهم لمّا رأوا أن الزمان اختارهم لمحض الدعاء ، أو لكلمات شرعية تحدث في بعض الأحيان ألْين من نسيم الهواء ، وقفوا هنالك مع الزمان على مافيه ، وقال لسان حالهم قول النبي ﷺ « من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » والحال أن لسان المقال لايمكنه بهذا الحديث الشريف الاستدلال ، لأن مصلحة الأُمّة ، ومنافع الخلافة العظمى ، وشؤونات الدين ، وانقلاب قوّة الملة ضعفا ، وغناها فقراً ، وجعلها هدفاً لأغراض قوم من الجهلاء أرباب المطامع والأغراض ،

المملوئين بالدسائس من الأمراض ، هـو من اهم مايعني العلماء في كل زمان، ويجب عليهم شرعاً وعقلا بذل الهمم لإصلاحه في كل آن ،ومع ثقل هذا الواجب ، وكونه من اهم المقاصد وأعظم المطالب ، فإنه لا يتم ذلك للعلماء اهل العقل الراجح ، والاقتدار الباهر الواضح إلاّ بالنظر الحسن من أولياء الأمور ، وهذا الأمر الذي يقول به كل ذي رأي سليم وقلب معمور ، والكلام في هذا الباب على وجوب تقديم صنف العلماء شرعاً على من سواهم من الصنوف في المواقف الاحترامية المعبَّر عنها الآن بالمواقع التشريفية الرسمية، وقد ثبت ذلك والحمد لله بالنصوص الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، وسنأتي في الباب الثاني بما يؤيد ما أوردناه من النص والنقل، من احكام العُرف والعقل، ليتضح الأمر وضوحاً كافيا ، وينبلج هذا المغلق انبلاجاً شافياً ، والموفق الله .

## ﴿ الباب الثاني ﴾

قد ثبت نقلاً وجوب تقديم العلماء على غيرهم ، وهُنا سنوضح لزوم ذلك عُرفاً وعقلاً .

أما العُرف في الملّة الإسلامية فهو تعظيم العلماء وتقديمهم على كل صنف من صنوف الملّة ، وتقبيل أياديهم ، والزيارة لهم ، والتبرّك

بهم ، وحضور مجالسهم وأخذ علم الدين والآداب والأخلاق والسياسة وغيرها عنهم ، وقد عرف كل من الملة الإسلامية لهم هذا الشأن ، في جميع الديار والبلدان ، وقد أعظمهم الخلفاء في صدر الإسلام ، واستناروا بعلومهم ، وانتفعوا بفضائلهم ، وأخذوا بمذاهبهم ، ورجعوا إلى أقوالهم ، وعقدوا الإجماع على معاملة الخالق والخلق بنصوصهم ، وتبعهم في ما ذهبوا اليه وعوّلوا من الشرع الشريف عليه الخلفاء والوزراء ، وخاصة الأُمة وعامتها ، ورجعت الأُمّة بعد تلخيص معلوم الى مذاهب الأئمة الأربعة الأعلام ، وتفرّقت الأُمّة شيعاً والعلماء عند كل طائفة هم القادة للناس ، والأئمة لهم بإيضاح احكام الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس ، وقد اهتم سلاطين الاسلام طبقة بعد طبقة بإعلاء شرف العلماء ، وإجلال منازلهم ، وبذل الحرمة والرعاية لهم ، وناهيك منهم بأجلّ السلاطين وأعظم الخواقين ، حُماة شريعة سيد المرسلين ، اعيان ملوك المسلمين ، قادات أُمراء الموحدين ، ارباب الفضل والتقوى والعرفان ، أئمة الأُمّة ملوك بني عثمان أعزّ الله مقامهم ، وأيّد بالمفاخر أعلامهم ، فالفاتح الأعظم قدس الله روحه أعزّ العلماء واحترمهم وأفاض عليهم برّه وإحسانه ، وزارهم في مدارسهم التي بناها لهم ، ورفع قدرهم على من

سواهم ، والحق ذلك إرث من أجداده أُسود ملوك الزمان ، الى جدهم المؤسس الأعلى السلطان الغازي عثمان خان ـ عليه الرحمة والرضوان ـ ومن يطالع ( الشقائق النعمانية ) يعلم كيف اعتناء السلالة العلية العثمانية بالعلماء ، وعناياتهم في حقهم وحفظ مقاماتهم وقد أجاز الغازي محمد خان طاب مرقده للمولى الكوراني حين دعاه الى حضوره أن لا ينزل عن دابّته إلاّ في الموضع الذي ينزل فيه السلطان ولما توفي المولى الكوراني حضر السلطان بايزيد خان قدس الله روحه في جنازته بنفسه وصلّى عليه ، وله وقائع مشهورة مع السلطان محمد رحمه الله تعالى وكان يغلظ المعاملة مع الجناب السلطاني ، ويقابله حضرة السلطان المشار اليه بالرفق والتعظيم إجلالاً لمنزلة العلم . ومن العلماء الأعلام في زمن السلطان المشار اليه المنلا خسرو وفضله مشهور ، واسمه مذكور وكان لدى الحضرة السلطانية معظّماً مكرماً ، وقد ضمّه مع الكوراني مجلس في وليمة أعدّها الجناب السلطاني فجعل السلطان اليمين للكوراني واليسار لمنلا خسرو فقام وكتب للجناب السلطاني إن الغيرة العلمية الدينية اقتضت أن لا أحضر ذلك المجلس وركب سفينة وذهب إلى ( بروسا ) وبنى هناك مدرسة ودرّس فيها ، وبعد زمان ندم السلطان محمد خان رحمه الله على ما فعل ودعا المنلا خسرو إلى مدينة

القسطنطينية فامتثل امره وأعطاه منصب الفتوى أعني منصب المشيخة وأكرمه إكراماً بالغاً ذكر ذلك مفصّلا في ( الشقائق ) وهنا نظر فإن السلطان كان قادراً على منعه أولاً وعلى جلبه ثانياً بغير رضاه ولكن لما كان البيت العثماني الجليل بيت الفضل والكرامة والمعرفة بمقادير العلماء كانوا كلهم على وتيرة واحدة يجلّون العلماء عن المنع والجلب بالقهر وقاية لمقام الشرع الشريف وعلى هذا سلك السلطان محمد خان فإنها أخلاق أجداده الكرام ، وحكم شريعة سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام .

ولما جرى بحث الجدال في مسألة كلامية بين خواجه زاده والمولى زيرك في حضور السلطان محمد خان كان الوزير محمود باشا واقفاً على قدميه ، واستمر البحث سبعة أيام ، وظهر خواجه زاده على المولى زيرك ، وغضب المولى زيرك وذهب لبروسا وبعد مدة ندم السلطان وعرض على المولى زيرك منصباً فلم يقبل وبقي في بروسا إلى أن توفي رحمه الله .

وفي دولة السلطان بايزيد خان قدس الله روحه كان من علمائه ابن الخطيب ، وكان أفضل الدين زاده مفتي الأنام ، وشيخ الإسلام ، وكان ابن الخطيب لعلمه وفضله يتقدم عليه ؛ ذهب ابن الخطيب في يوم عيد لزيارة حضرة السلطان بايزيد ومعه شيخ الاسلام فمر بالديوان

العالي والوزراء جالسون في الديوان فسلم عليهم افضـــل الدين زاده الذي هو شيخ الإسلام فضرب المولى ابن الخطيب بظهر يده على صدره وقال : هتكت عرض العلماء وسلّمت عليهم ، أنت مخدوم وهم خُدّام سيّما وأنت رجل شريف ؛ فدخل على السلطان ومعه شيخ الاسلام والفناري وابن الخطيب هو المقدم فاستقبله السلطان سبع خطوات فسلم عليه ولم يقبّل يد السلطان فبعد خروجه قال له تلميذه الفناري : هذا سلطان الروم لو قبّلت يده . فقال : يكفيه أن يذهب اليه عالم مثل ابن الخطيب وهو راض بهذا المقدار .

وكان كل من حضرات السلاطين المشار اليهم رحمة الله ورضوانه عليهم يسمعون هـــذا ويرونه بأعينهم ولا يغضبون لذلك ، وتزداد حرمتهم للعلماء ، وللمشائخ الأجلاء .

ولما طار من حافر دابة المولى ابن الكمال الطين وضرب حورانية[1] حضرة الخليفة الأول العثماني ، المحفوف بالمدد الرباني ، مؤيّد شريعة رسول الرحمن ، السلطان الغازي سليم خان ، فَسُرَّ لذلك السلطان الجليل المشار إليه ، وأمر أن ترفع تلك الحورانية بطينها وتوضع على قبره المبارك لأنها ملطّخة بطين طار عن حافر دابة رجل من فضلاء العلماء ،

(١) الحورانية ثوب يلبسه الرجل فوق ثيابه كـ (البرنس) ولكن بدون قبعة للرأس.

وما زالت هذه السلالة الطاهرة العثمانية مُعظِّمة لشأن العلماء بطناً بعد بطن حتى الآن، فإن سيدنا ومولانا حضرة الخليفة المعظم الغازي السلطان عبد الحميد خان الثاني، دام ملحوظاً بالعون الصمداني كآبائه العظام، وأجداده الكرام الأعلام، كثير الشفقة على العلماء، وفير الاحترام لهم، قائم بإعلاء منارهم، وتشييد فخارهم.

ولا يخفى أن الحكمة العقلية التي تقضي باحترام العلماء أن الأُمّة هي قِوام السلطنة ومدار بقائها، وعلّة قوّتها، وسيف مجدها، والأُمّة ترتبط قلوبها فتقف عند حد الطاعة، ولا يشذّ أحدهم عن الجماعة بهمم العلماء وإيضاح الأحكام لهم، وكثرة المواعظ وإلقاء الدروس الشرعية والحكمية لأفراد الأُمّة؛ ومن كانت هذه خدمته، وجبت حرمته ولينظر فإن المشيرين والوزراء لا يقوم أمرهم في خدمة السلطنة السنية بوجه عمومي.

فالمشيرون يوفي أحدهم خدمته في أحد الجيوش والجنود التي تُعطى له وتكون تحت قيادته في قطعة من الأرض سواء كانت داخل الحوزة السلطانية أو خارجة عنها، ولا تتم خدمته إلاّ بإطاعة الجند، وإطاعة الجند ليست له إنما هي لمقام الخلافة العظمى والملزم لكل فرد من أفراد الأُمّة جندهم وعامتهم بالطاعة للإمام إنما هو

الشرع ، والمبلِّغ لأحكام الشرع في كل زمان إنما هم العلماء ، فتعيَّن أن علّة النصرة التي يقوم بها ذلك المشير مؤسسة على التبليغات الشرعية المأخوذة من السُّنة السَّنية المحمـــدية والمبلِّغون هم العلماء أدام الله فضلهم ، وأعلى مجدهم .

ووزراء السياسة الذين يتخوَّضون بأموال الأُمّة هم ومن دونهم فكلهم لا يتمكن أحد منهم من عمل ما إلاّ بطاعة الأُمّة وانقيادها لأُولـٰئك العمّال ، وما الانقياد من الأُمـة لهم - إذ هم معلومون لا يحلّون ولا يعقدون بل البعض منهم لسوء حالهـــم وأطماعهم وأغراضهم ومخالفتهم لأوامر الله وشدة خدعهم ودسائسهم في خدمة حضرة الخليفة الأعظـــم ففي الظاهر أصدقاؤه وفي الباطن أعداؤه فهم مكروهون بنظر الأُمّة ولولا ظلّ الخلافة العظمى وعظيم انقياد الملة الإسلامية لها أدامها الله لرجموا مثل أُولـٰئك بالحجارة وعلى هذا - فالطاعة لهم والانقياد لأوامرهم محض امتثال وطاعـــة لحضرة أمير المؤمنين نصره الله تعالى ، وأيّد برهانه ، وخذل أعدائه ، وأعز لواءه .

والانقياد لمقام الخلافة الإسلامية أمر شرعي ، صادر عن جناب النبي الزكي عليه صلوات الله في كل صباح وعشيّ ، والمبلِّغ عن النبي العظيم أحكام شرعه الكريم هم العلماء ، فمن هـذا التمهيد الوطيـد

يتعيّن عقلا وحكمة تقديم العلماء على المشيرين والوزراء ولا يظن بمشير أو وزير يؤمن بالله ورسوله ﷺ وله مساس عقلي يصل إلى حكمة الشرع وفن انتظام أمر النوع أن يجحد هذا الحكم أو أن ينازع به ، وحينئذ فتأخير صنف العلماء في المواسم والمواقع الرسمية عن المشيرين والوزراء أمر غير معقول ، ومخالف للمنقول ، ومناف لما في الشرع المحمدي من الأُصول،ومباين للمدنية الوقتية بالكلية، فإن المدنية تقضي بالمساواة ، وخذل العلماء وحطّهم عن رتبة المساواة مع صنوف أُمّة هم منها بل هم أعيانها وقاداتها ، إنما ذلك يؤثّر على الطباع ، ويجعل شيئاً في القلوب ، لأن غاية السلك العسكري المشيرية ، وغاية السلك الملكي الوزارة ، وغاية السلك العلمي قضاء العسكر ، فما هذا التقديم لأُولئك الصنفين إلاّ معارضة للحكم الشرعي ، وللوضع المدني ، سيّما وان السلكين المذكورين رؤساؤهم لا يتجاوزون الممالك السلطانية ، وأما العلماء فهم في جميع البلاد الاسلامية في الشرق والغرب والهند والسند والايران وأفغانستان ، وكل عالِم على وجه الأرض لابد وأن يحزن لهذا التأخير الذي صار خاصاً بعصابة جنسه ، وكأن ذلك الإحقار حصل لنفسه ، فيا ليت لو حصلت المساواة للصنف العلمي مع أُولئك تطبيقاً لقاعدة المدنية ، والحال أن الأمر

ملزم بتقديم هذا الصنف العالي انقياداً للأحكام الشرعية التي هي روح الملة الإسلامية هذا الحكم العقلي العُرفي الموافق في هذا الشأن للحكم الشرعي النقلي ، والموفق هو الله .

## ﴿ الخاتمة ﴾

قد علِم كل ذي لبّ شرقي وغربي أن إجماع الأمم في الشرق والغرب وقع على تقديم العلماء وتعظيمهم ، وعلى رفع منازلهم على غيرهم من أيّ صنف كانوا ، وإلى أيّ سلك انتهوا .

أما العلوم الإسلامية فهي أُمّهات العلوم، وقد انبجست عنها علوم فنيّة لا تعد ، وهي الآن في اوروبا شائعة ذائعة ، ولما كثر اشتغال طوائف اوروبا بالفنون النظرية والصناعية ، وارتقت الصناعة إلى حدٍّ هو الغاية في بابه عندهم استدل كل عاقل بهذا على تعظيم العلم والعلماء عندهم إذ لولا إجلال العلماء النظريين والصناعيين عندهم لما عظُم كل من العلمين النظري والصناعي في أقطارهم ، ولما حصلت هذه النتيجة المشاهدة في أوطانهم بهذا المقدار ، فلو عُظِّم العلم وأهله النظري والصناعي في ديارنا حق التعظيم كما أمرنا بذلك الشرع الكريم لعلت النظريات في بلادنا ، والصناعيات أيضاً علواً عظيماً ، ولعاد كل ذلك نفعاً خاصاً للخليفة الأعظم يقوم بعمران بلاده ، وتأييد دولته ،

وقوّة أمره فوق ماهو عليه الآن ، ولكان ذلك نفعاً عاماً يرجع للأُمّة كلها على اختلاف طبقاتها من غير ريب .

ولينظر فإن رجلا من فلاسفة اوروبا يقال له ( اوراويس كولر ) له عدة رسائل فلسفية وسياسية قد اعظمه شعبه ورفعوا له بعد موته تمثالا في مدينة فيترى ، وسموا باسمه شارعاً من شوارع ( باريس ) ليبقى اسمه مذكوراً بينهم ، وهذا لم يكن عندهم من فطاحلة الفن وعظمائه ، ولا من رؤوس علمائه ولكن لما كانوا أهل اعتناء بالعلم ورجاله اعترفوا للرجل بفضله وأطبقوا على تقدير كماله .

هذا ( تيرس ) سياسيّهم الشهير الأخير رفعه العلم إلى المنزلة التي نالها بينهم ، والحظوة التي أحرزها فيهم مع المخاطرات التي ألقاها مسلكه احياناً على الأُمّة الفرنساوية غير أنه لما كان من المؤلّفين والعلماء السياسيين والنظريين كانت خطيئاته تغتفر ، وتحمل على ظروف الأوقات عندهم ، وعندنا تحمل على القدر ، وقد بلغ لديهم مبلغاً من المجد يعز مناله وما ذلك إلاّ لأن العلم عندهم عزيز هو ورجاله ، وبتاريخ حياة دكتور هوكو ، وولْيتر ، وأراغو وما جرياتهم وإعزاز الشعب لهم ، واحتفالهم بهم في حياتهم وبعد مماتهم ، وأمثالهم قديماً وحديثاً في الفرنساويين والاميركانيين والانكليز والألمانيين والرومانيين

وبقية الأوروبائيين من إعظام شعرائهم وعلمائهم والصناعيين منهم وتقديمهم في المحافل ، والأخذ بكلماتهم ، والاحتفال بنشر مؤلفاتهم ، ونيلهم ببضاعة العلم الغنى العظيم ، والعز والمكانة والحرمة العامة ، والتوقير من قِبَل هيئة الحكومة ما فيه كفاية .

وأما مَنْ أعلاهم العلم النظري ، والفن السياسي منهم كبسمارق وغلادستون وسالبوري ومن شاكلهم فأمرهم أشهر من أن ينبه عليه ، وما أحرزوا في أممهم تلك المكانة واقتدروا على خدمة حكومتهم وملّتهم إلاّ بالحرمة ومعاملتهم بما يليق لهم من الوقاية والرعاية والتقديم وإلاّ فلو جُعلوا كمخدّرات النساء أو قالوا وما أُصغي اليهم ، وألّفوا فمنعهم الحظ عن نشر علومهم ، ومدّوا يد الهمة للخدمة فكفّتهم القوة الحاكمة هل كانت حكوماتهم وبلادهم تنتفع منهم بشيء ؟ حاشا وكيف يكون والدليل المشاهد ( بسمارق ) فإنه مع عظيم خدمته لدولته التي رفعها إلى هذه المنزلة العظيمة ، وأحرز لها في العالَم السياسي هذه المكانة الجسيمة لما كف يده ملك المانيا الحالي عن الخدمة جلس في بيته كأنه لم يجنِّد الجنود ، ويُخفق البنود ، ويجمع طوائف الحكومات ، ويدهش فطاحلة السياسة بصنوف وقائعه ، وبقي كالمخدّرة في دائرته الخاصة ، والحال أن الملك الحاضر مع ضخامة رأيه ، وقوّة فكره ، وجلادة

عزمه ، وصولة سنِّه ، وكونه غير محتاج بعد توطّد الحال على هـذا المنوال لشيخ ضَعُف قواه ، وصار من الممكن أن يقوم مكانه سواه إلاّ أن خدمته لأبيه وجده وإيصاله الملك الألماني إلى ذروة مجـده وتقدّمه في الرياسة ، وتحنّكه في التجارب والسياسة يقضي له بمنزلة لا تُهضم ، وموقع يجلّ ويحترم ، ولذلك فإن الملك المشار اليه أعطاه لقباً عائلياً يُعطى لأبناء الملوك ، وأنزله منزلة الحرمة التي كتبت على الألواح ، وغصّت بها الصكوك .

والنكتة في أنه لما كف يده عن الأشغال خرج بطبعه من شنشنة ذلك الحال الذي ملأ البلاد عربدة وأخباراً ، وأوقد في عالم السياسة والمدنية من الإجراآت المهمة ناراً ، وسكن متحرك تلك الأخبار ، وانكشف عن معامع سياساته الغُبار ، وصار كما قيل :

كأن لم يكن بين الحصَب والصفا رفيق ولم يسمر بوجرة سامر

---

فالحاصل من هذه الخاتمة سرّان لطيفان وهما أن العلماء في كل ملّة ، وبكل دولة على اختلاف المذاهب والمشارب مقدّمون على من سواهم من صنوف الرجال ، ولهم بذلك مرتبة العز التي لا تنال ، والسر الثاني

أن العلماء لا يصل فاضلهم ولا يبلغ كاملهم إلى الرتبة التي يخدم بها دولته ، ويصون بجليل علمه واقتداره ملّته ،وينفع سلطانه ، ويرفع بالبراهين شانه إلاّ إذا أحرز نظراً حسناً من ولي الأمر في كل بلد وقُطر ، وهناك يظهر جوهر علمه ، وشرف عقله وإلا فإذا أغلق صندوق فكره بالهموم الثقيلة ، وكسرت حِدّة ذهنه بالأفكار المكدرة والأوهام الطويلة ، وبقي مع عظيم فضله وقوّة رأيه ذَنَباً لأُناس أذلّ وضعاً من ذوات الأذناب ، وأمضى أيّامه ولياليه لمدافعة الكذابين والمفترين بأفكار وَلِهمِّ اللُّقمة والدَّيْن بحساب ، فأين يقدر على الخدمة ، ومن أين يُحسب في أهل العلوم الجمّة ، والإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : لو كُلِّفت بصلة ما حفظت مسألة . وقد يُرى العالم النحرير بنظر من لم يتقن الفنون النظرية محدود الاقتدار ، ولم يعلم ذلك الرجل أن العالم الذي أحاط بالمعارف والفنون والآثار ، وتمكن من النظريات السياسيّات والشرعيات ، جليل العزم والعزيمة ، منزلته عظيمة ، ومزيّة اقتداره جسيمة ، غير انها تحتاج إلى حرمة ، واستعمال في كل مُهمّة ، ونظر حسن من وُلاة الأُمور ، وهناك يُظْهر سر اقتداره المستور ، ومثله كالجوزة الواحدة إذا اعتنى بها صاحب البستان وزرعها وأحسن رعايتها ولَفَت وجهة الاعتناء إليها

برزت ثم نمت فصارت شجرة عظيمة ، إنبجست عنها من ماء الحكمة نتائج كبيرة ، فأتت بأشجار ، وكثير من الثمار ، فيحير لها الجاهلون ، ويُسر بها العالمون ، هذا الحال والأمر لله في المبدأ والمآل ، وبعد الله مالك السر والجهر ، فالأمر لوليّ الأمر .